

لماذا تتفكك الأسرة؟



أ.د/ محيي الدين عفيفي^(*)

قد يبدو هذا السؤال صادمًا للبعض ! ولكن لا بد من الإجابة عليه بصدق وشفافية ؛ لأن الهروب أو المراوغة في الإجابة لن يفيد .

إن مما دعا إلى طرح هذا السؤال ما نراه من صور سلبية في المجتمع ، وكمّ الأسر التي تفككت بشكل مُعلن ، وبشكل غير مُعلن خوفًا من نظرة الناس أو المجتمع ، أو لاعتبارات أخرى تختلف حسب المستويات والمواقع الاجتماعية .

وأرقى وأعظم من ذلك ، حيث تقوم على تحقيق السكينة والاستقرار من خلال سجاج المودة والرحمة التي يتفياً الزوجان والأولاد ظللها الوارفة ، في ظل المناخ الأسري الذي يقوم على الاحترام المتبادل بين الشريكين ، حيث يستشعر كل منهما مسؤولياته التي ينبغي أن يضطلع بها ، فلا مجال للشعور بالفوقية أو الاستعلاء من قبل الرجل على المرأة ، بل يحترم الرجل إنسانية المرأة ، ويقدر دورها في الأسرة الذي لا يقل أهمية عن دوره ، بل أحياناً يفوقه ، ولكن لا مجال في الأسرة أن يُشعر كل طرف الآخر بعدم أهمية دوره ؛ لأن التعامل بينهما يقوم على التكامل والتعاون والتفاهم ، رغم اختلاف الآراء ووجهات النظر في بعض الأمور ، حيث يُعد ذلك من قبيل التنوع والتكامل ،

وفي البداية أود أن أؤكد على أن النظام الكوني في المخلوقات قام على الزوجية ، وتعد العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة نموذجاً راقياً في العلاقات الاجتماعية ، ومن دلائل قدرة الله تعالى في الخلق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

أهمية تحقيق المودة والرحمة في الأسرة:-

إن السكن والمودة والرحمة من أهم الأسس التي تقوم عليها الأسرة في الإسلام ، فالعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة لا تنحصر في تلبية احتياجات الشهوات ، بل العلاقة أسمى

(*) أمين عام مجمع البحوث الإسلامية.

وهذا بالطبع لا يعني عدم التعايش ، أو ضعف المحبة والمودة .

إن الأفضلية الذاتية للرجال على النساء ، مما يتناقض بشكل حاد مع صريح القرآن الكريم ، لأن الله تعالى يقرر ويؤكد أن النساء والرجال متساوون في ميزان القرب من الله تعالى ، وإنما يفاوت بين درجاتهم في ذلك تفاوت أعمالهم الصالحة التي يقومون بها ، ابتغاء مرضاة الله .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾

(آل عمران : ١٩٥)

وقال تعالى :

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل : ٩٧) .

ثم إن البيان الإلهي يعود فيزيد هذه الحقيقة تأكيداً ، إذ يبرزها فيما يشبه الصياغة القانونية المحددة فيقول :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات : ١٣) .

فقد أسقط قرار الله - عز وجل - فوارق الذكورة والأنوثة ، واختلاف الأقسام والقبايل ،

وتمايز ما بين الشعوب المتنوعة . فهل من الممكن بعد هذا ، تفسير الأفضلية في قوله تعالى في آية القوامه :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(النساء : ٣٤)

بأفضلية الرجل من حيث إنه رجل على المرأة من حيث إنها امرأة؟

إن قرار كتاب الله يُحيل هذا التصور إلى وهم باطل ، ويطرده من مجال أي فهم صحيح للمعنى المراد من هذه الجملة في آية القوامه . إذن فما المعنى المراد من قوله تعالى :

﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(النساء : ٣٤) ؟

إنها أفضلية التناسب المصلحي مع الوظيفة التي يجب النهوض بأعبائها^(١) .

نظرة الإسلام للعلاقة بين الزوجين :- إذا كانت هذه النظرة الموضوعية للإسلام لطبيعة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ، فلماذا تنشأ الصراعات بين الزوجين وتظهر المشكلات التي تؤدي إلى تفكك الأسرة وانهارها؟! .

عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(٢) .

ومع ذلك فلا يُتصور وجود حياة أسرية تخلو من بعض الهنات والمشكلات التي تؤثر بشكل أو بآخر (وقتيًا وسريعًا) ولكن لا يؤدي ذلك إلى تدمير وتفكيك الأسرة .

(١) انظر: المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، د. محمد سعيد البوطي، ١٠٢-١٠٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ، رقم: ٣٨٩٥ .

له فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا قال فقال لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ فقال يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النّفقة فقيمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال هنّ حولي كما ترى يسألني النّفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين^(٤) ثم نزلت هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَأَنَّ يَكُنَّ مَتَاعًا وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٨)
مما يدل دلالة واضحة على أن بيوت النبي ﷺ كان يحدث فيها من الأمور اليسيرة التي تحدث بين الأزواج، ولكن السؤال: كيف كانت تُعالج؟ وكيف كان دور كل من أبي بكر ﷺ والد زوج النبي ﷺ، ودور عمر ﷺ والد زوج النبي ﷺ حفصة رضي الله عنها.

وهناك موقف آخر يحدث في بيت عمر ﷺ، لقد ذهب رجل إلى عمر ﷺ يشكو خلق امرأته فوقف ببابه ينتظر خروجه، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها، وهو ساكت لا يحير جوابه، فانصرف الرجل قائلاً: إن كان هذا أمير المؤمنين مع زوجته فكيف

لقد كانت بيوت النبي ﷺ نموذجا راقيا في التعامل مع المشكلات الطارئة التي قد تحدث - أحيانا - لأن العصمة من بعض الهفوات ليست من حظ كل البشر، مهما كانت درجاتهم باستثناء الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

«لقد كنّ - أحيانا - يتحزبن - أي نساء النبي ﷺ ضد رغبته في حبه لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أو مكثه عند زينب قليلا ليشرب العسل، واجتمعن على شكل مؤتمر قررن فيه محاولة صرفه ﷺ عن حبه الشديد لعائشة رضي الله عنها، وحملهن قرارهن فاطمة - بنته - رضي الله عنها لعله ينزل على مقتضاه، وبعد عدة سفارات تقوم بينه وبينهن تشترك فيها زوجته زينب بنت جحش رضي الله عنها، ينهاهن ﷺ عن إيذائه في حبه».

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبي قالت فقلت من أين تعرف ذلك فقال أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا وربّ محمد وإذا كنت عليّ غضبي قلت لا وربّ إبراهيم» قالت: «قلت أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»^(٣).

عن جابر بن عبد الله قال دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: في غيرة النساء ووجدهن، رقم: ٤٩٣٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم: ١٤٧٨.

إلى ما يشبه السجن الذي يريد كل طرف أن يهرب منه .

وهنا تحتاج الأمور إلى العقلاء والحكماء من الأهل - أهل الزوج وأهل الزوجة - :

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

(النساء: ٣٥) .

وهذا ما كان يفهمه أبو بكر الصديق وعمر -رضي الله عنهما- من خلال ما تعلماه من رسول الله ﷺ في علاج المشكلات الزوجية، وفي توعية البنات، وفي دعم استقرارهن مع أزواجهن، وعدم التشجيع على الطلاق والانفصال وغير ذلك مما نراه في واقعنا المعاصر، حينما نرى بعض الآباء عند حدوث أي مشكلة بين ابنته وزوجها - فبدلاً من الإصلاح بينهما - يقول الأب: طلقها لا بد من الطلاق، ويبدأ الصراع واستخدام النفوذ والذهاب إلى ساحات المحاكم، وفي معترك الصدام والصراع يضيع الأولاد والأطفال وتتوقف الحياة، حيث يصبح الشغل الشاغل لكل طرف قهر وسحق الطرف الآخر، وتبدأ مشاكل الرؤية للأطفال والتعنت فيها واستخدامها كورقة ضغط لإذلال الطرف الآخر، ومشاكل الحضانة والتعسف في النفقات وغير ذلك بسبب الظلم والتجبر من أحد الطرفين،

حالي؟ فخرج عمر فرآه مؤلياً فناده وقال: يا هذا ما حاجتك، فقصص عليه الرجل ما كان، فقال له عمر ناصحاً - : يا هذا إني أحتملها لحقوق لها علي: إنها طبخة لطعامي، خبزة لخبزي مرصعة لولدي، ويسكن بها قلبي عن الحرام.

فقال الرجل: وكذلك زوجتي يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: إذن فاحتملها فإنها مدة يسيرة - يريد مدة الحياة^(٥).

إن الإسلام يأمر الزوج بضبط نفسه وتحمل التجاوزات التي قد تحدث من الزوجة، وكذلك يأمر الزوجة بالصبر على زوجها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ضرب النساء^(٦).

لقد أكد النبي ﷺ على أهمية إكرام الزوجة والمرأة بشكل عام فقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم»^(٧).

الشاهد من ذلك: أنه عندما تحدث المشكلات في الأسرة، فإن ذلك يستدعي حالة من ضبط النفس من قبل الزوجين والتحلي بالحكمة والصبر، ولكن أحياناً تغيب هذه الأمور، ويتنكر كل طرف للآخر، ويتحول الأمر إلى هزيمة وانتصار بينهما، ويريد كل طرف أن يقهر الآخر بأي شكل يراه، وتتفاقم الأمور إلى درجة تستحيل معها العشرة، ويصبح البيت جحيماً لا يطاق، ويتلظى الأولاد بنيران ذلك، مما يؤدي إلى حالة من الكآبة والحزن، ويتحول البيت

(٥) ذكرها الشيخ سليمان بن محمد البجيرمي الفقيه الشافعي في (حاشيته على شرح المنهج) (٣/ ٤٤١-٤٤٢)، كما ذكرها أيضاً أبو

الليث السمرقندي الفقيه الحنفي في كتابه (تنبيه الغافلين) (ص: ٥١٧). وكذا ابن حجر الهيتمي في (الزواجر) (٢/ ٨٠).

(٦) انظر: موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ. عطية صقر، ٥٦/٣ - ٥٧.

(٧) رواه ابن عساکر في (تاريخ دمشق) (١٣/ ٢٣١٣).

اعتقاد الرجل بأنه صاحب الكلمة والرأي مما يؤدي على مرّ الأيام إلى الانفصال .

٣- الخلل في عملية الاختيار قبل الزواج سواء من قبل الزوج أم من قبل الزوجة حيث أصبح العامل المادي هو أساس الاختيار والموافقة، حتى تحول الزواج عند فئات غير قليلة من المجتمع إلى مجرد صفقات تجارية، مما أدى إلى تغييب المعايير التي حددها الإسلام في الاختيار «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٩). وبالنسبة للزوج «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»^(١٠).

٤- ارتفاع معدلات الطلاق بنسب تهدد استقرار المجتمع، وتؤدي إلى تدمير أفراد الأسرة وتشريدهم وضياعهم، وإصابتهم ببعض العقد النفسية نتيجة افتقاد الحنان والرحمة بسبب تفكك الأسرة وانفصال الأبوين، وظهور الصراعات التي تنشأ بينهما، ورغبة كل منهما في الانتصار لنفسه، وسحق الطرف الآخر ولا يلتفت في ظل تلك الأجواء إلى الأبناء، مما يدل على عدم المسؤولية، وعدم فهم قيمة الأسرة، حتى إننا لنرى فئات من المطلقات يقمن بعد طلاقهن بإقامة (حفلات للطلاق)، ودعوة أصدقائهن للمشاركة بفرحة الطلاق، مما يدل على خلل كبير في النظر إلى مفهوم الأسرة، ولذا نجد ارتفاع معدلات الطلاق في الشهور الأولى للزواج، أو خلال سنة منه، أو في السنوات

والضحية المرأة والأولاد، أو الرجل والأولاد.

من أسباب التفكك الأسري:-

لا بد وأن نسأل سؤالاً مهماً هو: ما الأسباب التي أدت إلى ما يعانيه المجتمع من تفكك أسري؟

إن مشكلة - التفكك الأسري تعد خطراً كبيراً يهدد استقرار المجتمع نظراً للآثار السلبية الناجمة عن هذا الأمر، ويمكن إيجاز الحديث عن أسباب التفكك الأسري فيما يلي :-

١- الإهمال الأسري وتضييع الحقوق :

إن من أسباب تفكك الأسرة: إهمال الزوج أو الزوجة، أو الإهمال في القيام بواجباتهما المشتركة بينهما وعدم استشعارهما للمسئولية الأسرية، وتضييع حقوق الزوجية والأولاد.

قال ﷺ: « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»^(٨).

وهذا يدل على خطر إهمال الإنسان لزوجته أو أولاده، مما يترتب عليه ضياع حقوق من هو مسئول عن معيشتهم وتربيتهم من زوجة وأولاد، فكثير من الأولياء يضيعون أولادهم وبيوتهم.

٢- غياب روح التفاهم

نتيجة عدم وجود حوار متكافئ بين الزوجين أو عدم اعتراف أحدهما بأحقية الآخر في التعبير عن رأيه بموضوعية، أو

(٨) سنن النسائي، كتاب عشرة النساء، باب إثم من ضيع عياله، رقم (٩١٣١).

(٩) متفق عليه.

(١٠) أخرجه الترمذي وحسنه.

وغياب الإحسان الذي أمر به الإسلام ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧) إن من الإحسان أن يتحمل كل طرف ويصبر على الطرف الآخر، وأن يذكر له محاسنه، ولا يقوم بمحورصيده في العشرة الطيبة والإخلاص له بمجرد موقف أو هفوة.

لقد علمنا رسول الله أن الإحسان للزوجة لا يكون في الحياة فقط بل بعد الممات، فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال: كيف أنتم وكيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت، قلت يا رسول الله: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال، فقال: يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»^(١١).

هكذا علمنا النبي ﷺ أهمية الإحسان بين الزوجين، وأهمية الوفاء، وأهمية احترام إنسانية الزوجة لأن ذلك من القيم الإنسانية التي ينبغي أن تحترم في حياتنا.

الأولى، وبعد ذلك أيضاً مما يدل على خلل كبير في التربية والتوجيه قبل الزواج، وبيان أن الزواج له قدسية عظيمة وقد سماه الله تعالى: ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١) فله من الأهمية والقدر العظيم الذي ينبغي على الزوجين فهمه.

٥- غياب دور أسرة الزوج وأسرة الزوجة في التوجيه والإصلاح، وإعانة الزوجين على حل أو تجاوز المشاكل، بل أحياناً يكون الأهل من أبرز أسباب المشاكل، سواء بشكل مباشر في افتعال المشاكل، أم بشكل غير مباشر في التعامل السلبي مع المشاكل، وعدم تقديم الحلول، مما يؤدي إلى تفاقم الأمور واللجوء إلى الطلاق.

٦- انتشار المخدرات وتفشي الإدمان بين الشباب والآثار السلبية الناجمة عن ذلك.

٧- تدني منظومة القيم الأخلاقية في التعامل بين الزوجين والجهل بحقوق الزوجة



(١١) أخرجه الحاكم وصححه البيهقي والطبراني.